فلسطين عروس عروبتكم

ما لَنا وفلسطين [1]

(١) نشرت بالعديد من المواقع الإليكترونية وبعض الصحف العربية عام ٢٠٠١.

obeikandl.com

obeikandl.com

من المؤكد إنني لم أمت قبل ذلك أبدا .. فما هي إلا ميتة واحدة نبعث بعدها فلا نموت أبدا .. لم أمت .. ولست أدرى حتى الآن كيف تكون قسوة الموت.

وبالرغم من ذلك فيخيل إليّ أن وقع تلك العبارة التي سمعتها لا يقل قسوة عن الموت.

من المؤكد إنني لم أصب قبل الآن بنزيف في المخ.

ولا اخترقت حشايا فؤادي شظية مزقته.

وبالرغم من ذلك فيخيل إليّ أن ما عانيته من ألم تلك العبارة ليس أقل ..

كالطعنة الغادرة جاءت العبارة ..

« ووجه بيريز حديثه إلى الفلسطينيين معلقا على قرارات مؤتمر القمة العربي الأحير قائلا: انفضوا أيديكم من العرب .. واعلموا أن الإسرائيليين أقرب إليكم منهم .. لا يوجد لكم أصدقاء في المنطقة كلها سوى الإسرائيليين»

***

لا أريد أن أعلق الآن يا قراء على أحداث مؤتمر القمة ..

لكنني أقول لكم أن العار الذي يجللني – ويجللكم أنتم أيضا يا قراء- قد منعني من الصراخ عندما سمعت عبارة ذلك الشيطان لأقول له: أنت كاذب ..

هل يجرؤ منكم أنتم أحد يا قراء أن يقولها له؟ ..

نكأوا الجرح الذي لم يندمل .. وانصب ذوب الرصاص المنصهر على القلب مع تدفع الذكرى تدافع حمم بركان ثار ..

كان ذلك بعد هزيمة ٦٧ .. كانوا في غزة .. كان أعداء الله اليهود (فهكذا سماهم القرآن) – ولا أقول الصهاينة –قد انفردوا بإخوتنا الفلسطينيين .. وراحوا يسومونهم سوء العذاب ولا أحد في عالمنا العربي المترامي الأطراف يتحرك.

وانطلقت مظاهرة حاشدة تهتف بهتاف واحد:

- يا وحدنا

الآن أيضا: يا وحدكم

***

وكالسيل .. عندما يجد مجراه مسدودا بالعوائق فإنه يهدر كالطوفان في أماكن أخرى .. أماكن شاذة لم يكن له أن يصل إليها وليصبح سر الحياة سبب فنائها.

وهكذا .. عندما منعتنى العوائق من التعليق على مؤتمر القمة وجدت الطوفان يفور كنزيف في القلب

- ما لنا وفلسطين .. ما لنا وفلسطين .. ما لنا وفلسطين؟

***

لا .. لم أجنّ بعد يا قراء وإن كان كل ما حولنا يدفع للجنون ..

لكن .. لماذا ندين مؤتمر القمة؟

لماذا نغضب منه كل هذا الغضب ونصيبنا قراراته بكل هذه الحسرات وخيبات الأمل ..؟

لماذا نكلف الأشياء ضد طباعها ولماذا نتطلب في الماء جذوة نار ..؟

ولماذا نزرع الشوك ونحزن عندما لا يثمر فاكهة وأبا؟

***

ما هي المرجعية التي نحاسب عليها مؤتمر القمة لنحدد إن كان قد أخطأ أم أصاب؟

ما هو نموذج الإجابات الصحيحة التي نراجع عليها قراراته لنعلم إن كان قد نجح أم رسب؟

هل هي مرجعية الدولة القُطْرية؟ أم مرجعية القومية العربية ؟ أم مرجعية الإسلام والخلافة؟؟

فإن كانت مرجعيتنا هي الدولة القطرية الوطنية فما لنا وفلسطين؟

إن كانت مصر أولا وأخيرا فلماذا لا تكون العراق أيضا أولا وأخيرا والكويت أيضا بل وإسرائيل؟

إن كانت خطوط الخرائط في أطالس الجغرافيا هي المرجعية فلماذا نلوم من تباعدت خطوطهم؟

إن العروبة لا قيمة لها بدون محتواها الإسلامي الذي يعطيها قيمتها ومعناها ومحتواها ..

فإن نزعنا الإسلام من الصراع فإننا ننزع العروبة أيضا.

فإن أفرغنا مشكلتنا مع اليهود من الإسلام والعروبة معا فماذا يبقى؟

تبقى مشكلة الفلسطينيين مع اليهود وهى مشكلة لا ناقة لنا فيها ولا جمل .. وليس مطروحا أبدا أن نحارب من أجلها بنفس الدرجة التي تعفي كوستاريكا من الحرب إلى جوار الفلسطينيين ..

نعم .. إن كانت مرجعيتنا هي الدولة القطرية الوطنية فإن الوشائج التي تربطنا بالفلسطينيين لا تفرض علينا سوى إبداء نوع من التعاطف ربما يقل عما نبديه الآن ..

نوع التعاطف الذي نبديه مع شيلي أو نيكاراجوا أو التبت أو زنوج جنوب أفريقيا قبل الاستقلال ..

(دعونا الآن من أن مرجعيتنا دون الدولة القطرية بكثير .. بل دون الدولة القَبَلِيّة أيضا .. فقد تدهورت الأمور في كثير من بلادنا لتصبح مرجعية النخبة الحاكمة هي مرجعية العصابات واللصوص).

***

فإن كانت مرجعيتنا هي القومية العربية (بعد أن نفرغها من روحها الإسلامي لتصبح هيكلا محنطا لا يصلح إلا لمتاحف التاريخ) فلماذا ننـدهش عندما تسقط دعاوانا ودعاوى القومية في الدنيا كلها تسقط أو سقطت تحت معاول محو التمايز وطمس الهوية إضافة إلى القصور الكامن في الفكرة

لماذا لا نصدق طه حسين وسلامة موسى وأحمد لطفي السيد وعلى عبدالرازق وموجات الحداثة التي تلطمنا لنقتنع أن ما يربط مصر – على سبيل المثال بالغرب أكثر مما يربطها بالشرق؟

ما هو الإجبار الذي يدفع أي دولة عربية على الاحتفاظ بهويتها العربية وتحمل أعباء التزاماتها؟

أليس واردا – ليس على سبيل المثال ولا الخيال .. بل على سبيل الواقع- أن دولة أو دولا ترى في القومية العربية رداء تمزق وبلى وأكل الدهر عليه وشرب وبال .. وأن الأفضل لها أن تلجأ إلى قومية أخرى أو أن تخلع رداء القومية كلية لتلحق بالعولمة في نظامها الجديد.

بل أليس واردا - ليس على سبيل المثال ولا الخيال .. بل على سبيل الواقع الذي يحدث الآن - أن دولة عربية أو دولا ترى في إسرائيل صديقا وفي بعض العرب عدوا؟

لماذا نتعسف فنلبس الدول القُطْرية ثوب القومية الذي بلى وضاق. لماذا نرغم هذه الدولة أو تلك على اعتناق رؤانا ؟. ولماذا لا نتركها على اقتناعها بأن مصلحتها في العلاقة مع أمريكا وإسرائيل ولو ضد العرب؟

ما هي المرجعية؟

هل هناك مرجعية غيبية للقومية العربية ترغم الجميع عى الالتحاف بها والتسربل بغطائها؟

في ظل رؤى نخبنا فقد سلبنا الإسلام غيبيته .. وأصبح الحديث عن الغيب تخلف ورجعية وظلامية وإرهابا

هل نمنح تلك القوة الغيبية للعروبة دون الإسلام؟

هل نقدس المدنس وندنس المقدس؟

وهل الرؤية القومية إجبار أم اختيار؟

فإن كانت إجبارا فما هي دوافعه؟

هل هي اللغة؟

سنترك اللغة لنتحدث لغة أخرى

هل هو العرق؟

أنسابنا مختلطة وعروقنا شتى

هل هو التاريخ؟

فلماذا إذن نشوه تاريخنا ونعتمد رؤى أعدائنا فيه؟

هل هو الجوار؟

..

..

إسرائيل جار

وبالنسبة لدول المغرب ففرنسا جار .. وبالنسبة للمشرق فالهندوس جار .. وبالنسبة للشمال فالأرثوذكس جار .. وبالنسبة للجنوب فالوثنيون جار

وإن كان من حقنا أن نقطع أوصال الإسلام لنشكل من أشلائه ما شاء لنا الهوى فلماذا نصادر على أي دولة أن تفعل نفس الشيء بالقومية فتفسرها بما شاء لها هواها .. حتى لو كان التفسير مسخا شائها يمثل النقيض على طول الخط.

ولماذا نعتب على واحد منهم صرح عن رأيه في أن يذهب المسجد الأقصى «في ستين داهية!!» .. أستغفر الله العظيم .. عليه وزر ما قال لكنني لا أملك إلا تقريظ جهره بالفحشاء التي يمارسها الآخرون في الخفاء وربما أكثر

لكن .. لماذا لا تكون القومية العربية هي التي تذهب «في ستين داهية؟

نعم .. إن كانت القومية العربية اختيارا فلماذا نلوم من يختار سواها؟

***

في كتاب: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ: الدكتور جمال عبد الهادى وآخرون – دار الوفاء- المنصورة-مصر، يقول المؤلفون:

لقد عقد اليهود مؤتمرهم في عام ١٨٩٧ في مدينة بال بسويسرا بناء على طلب تيودور هرتزل النمساوى اليهودي. وكانت القرارات ومنها إنشاء دولة يهودية في فلسطين تجمع شتات اليهود من أنحاء العالم .. وقد عرض هرتزل على السلطان عبدالحميد الثاني أن يصدر فرمانا بالسماح لليهود الأجانب بالهجرة إلى فلسطين، والتوطن فيها، وأن يدفع، اليهود عند صدور الفرمان مبلغا كبيرا من المال، ثم يقومون بعد ذلك بدفع جزية سنوية للدولة. وجاء الرد على لسان السلطان عبدالحميد: انصحوا هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من فلسطين فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي. لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم. وإذا مزقت إمبراطوريتي يوما فإنهم يستطيعون أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن. أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدنى لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتي. وهذا أمر لا يكون. إنني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة). وجاء اليوم الذي

يتخذ فيه الخونة قرارا بعزل السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش وقد حمل إليه قرار العزل وفد من ثلاثة أعضاء كان أحدهم يهوديا اسمه (قره صو) أفندي الذي يكن العداوة والبغضاء للسلطان، لأن الأخير كان قد طرده من قصره حين حاول التأثير عليه لقبول تهجير اليهود إلى فلسين وتوطينهم فيها.

نعم .. خلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين أحد أبناء اليهود الذين حرم عليهم فلسطين

***

إنني أدرك أن الدولة العثمانية لم تكن في بعض أحوالها – وليس كلها – إلا صورة مشوهة للخلافة .. ومع ذلك فإن هذه الصورة المشوهة استطاعت الحفاظ على فلسطين ليضيعها بعد ذلك صناديد القومية العربية بصورتها الأصيلة .. وبلا ثمن

***

في الكتاب القيم: مفهوم الدولة: عبدالله العروي: المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء يقول المؤلف:

« تعاقبت على الرقعة الجغرافية التي تكوّن اليوم الوطن العربي دول متعددة، تختلف الواحدة عن الأخرى إما بالانتماء المذهبي أو القبلي أو العرقي. فنقول الدولة العربية، الدولة الفاطمية، دولة الخوارج، دولة الملثمين ... إلخ. تعني الكلمة هنا الجماعة المستقلة بالسلطة المستأثرة بالخيرات وتعني في نفس الوقت الامتداد الزمني لتلك الاستفادة. لنرتفع إلى مستوى التجريد، فنتكلم عن الدولة إطلاقا، أي عن الشكل العام لتنظيم السلطة العليا في جميع الدول المذكورة. تنتفي الصفات العرضية، المذهبية والقبلية والجنسية، باستثناء صفة واحدة هي الصفة الإسلامية.

***

ألا ترون يا قراء أننا في أقطارنا الآن قد استبعدنا الأصيل واستبقينا العارض؟

فلماذا نلوم على مؤتمر القمة إذن .. ومالنا وفلسطين؟

***

في إيجاز معجز وإعجاز مذهل يتحدث ابن خلدون عن ثلاثة أنماط من الحكم:

- النوع الأول: الملك الطبيعي وهو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة

- النوع الثاني: الملك السياسي وهو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار. ثم يعود ابن خلدون ليقسم هذا النوع من الحكم إلى قسمين: نوع يهدف إلى مراعاة الصالح على العموم ونوع ثان يهدف إلى مصلحة السلطان فقط.

- النوع الثالث: الخلافة وهي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به

***

النوع الأول : الذي ذكره ابن خلدون هو السائد في جل العالم الإسلامي، حكم القهر والتسلط والجبروت والهوى، فما أضيعنا إذن إذا حكمنا بمرجعية هذا الحكم على قرارات مؤتمر القمة، وما أضيعنا إذا طلبنا ممن كانت مرجعيته تلك أن يناصر فلسطين أو العراق أو السودان أو الشيشان !! هذا الصنف لن يناصر إلا نفسه، ومواجهته بالمنطق تسفيه للمنطق لأن الهوى لا المنطق مبدؤه ومنتهاه

النوع الثاني بقسميه: الذي يهدف إلى مصلحة الدولة والذي يهدف إلى مصلحة الحاكم فقط، وهو أيضا لا يصلح لإدانة قرارات مؤتمر القمة، إن قريشا أدرى بشعابها، وكذلك مصر والعراق والمغرب والكويت، وليس ثمة مرجعية مجردة يمكن أن نقيس عليها، ولا أن ندين هذه الدولة أو تلك إن اختارت مصالحها مع أمريكا وإسرائيل ضد العرب والمسلمين.

النوع الثالث: هو المهجور، هو الذي لا يكف ولاة أمورنا عن إقناعنا أنه هو الإرهاب والظلامية والتحجر والجمود والقرون الوسطى ومحاكم التفتيش. وليس صدفة بالطبع، أن هذا النوع من الحكم هو الذي يمكننا من أن نحاسب ولاة أمورنا، وهو الذي لا نستطيع معه أبدا أن نقول: ما لنا وفلسطين، ففلسطين الأرض ليست وطنا، ولا مصر ولا السودان ولا الشيشان ولا الكويت ولا العراق، الإسلام هو الوطن، وعلى كل مسلم أن يدافع عنه، بنفس المسؤولية ونفس الحمية ونفس الإثم إن لم يفعل.

***

يوضح الدكتور عبدالله العروي أن ما يفصل الملك عن الخلافة ليس تطبيق الشرع بل الهدف المتوخى من ذلك التطبيق. قد يجدد حاكم ما معالم الشرع لأسباب سياسية عقلية، ليحفظ الأمن ويشجع على العمل والإنتاج، وبالتالي ليزيد في عمر دولته، في حين أن الخلافة هي تطبيق الشرع لتحقيق مقاصده وليست تلك المقاصد إلا مكارم الأخلاق. لا يكفي أن نقول: هدف الشرع هو المصلحة، حتى لو فهمنا منها مصلحة العموم، أي زيادة الخيرات وتقدم العلوم واستدامة السلم والأمن. يقول ابن رشد، الفقيه المالكي: إن الشرع أعلى من الناموس العقلي، ويصرح ابن خلدون: « وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لأنه نظر بغير نور الله .. لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيّب عنهم من أمور آخرتهم.) يعني هذا الكلام وهو كلام الفقهاء جميعا أن الدولة السلطانية التي تطبق الشرع حرفيا ليست خلافة لأنها تهدف من وراء ذلك التطبيق إلى الراحة والاستقرار، أي إلى غاية دنيوية أما الخلافة فهي الحكم الذي يهدف من وراء المصلحة الدنيوية المحققة إلى مقصد الشريعة. إلى ما يسميه الفقهاء وغيرهم مكارم الأخلاق لا يكون الحكم خلافة إلا إذا نظر إلى ذاته كأداة في خدمة هدف أعلى، لا تكون الدولة خلافة إلا إذا جاوزت أهدافها الذاتية. عندئذ قد يكون الجهاد علامة على ذلك التجاوز وقد لا يكون. إذا كان الهدف منه هو التوسع فهو داخل في سياسة الدولة لا أكثر ولا أقل وإذا كان الهدف منه هو إعلاء كلمة الله فقد يدل على إحياء الخلافة، بشرط أن تكون كلمة الله هي العليا في الداخل قبل التوجه إلى الخارج.

***

نعم المرجعية هنا هي الإسلام...

إجبار على المسلم لا اختيار...

ففي اللحظة التي يقر فيها أنه مسلم تنعقد مسؤوليات الإسلام عليه

ومنها أن الإسلام - لا خطوط الخرائط في أطالس الجغرافيا – هو الوطن

وبذلك يكون الدفاع عن فلسطين ليس تضامنا مع شقيق أو قريب .. بل هو دفاع عن النفس نخاطر بآخرتنا إن لم نبذل غاية الجهد فيه.

أما هؤلاء – الطابور الخامس – الذين يلتحفون بعباءة الإسلام دون أن يلتزموا بأوامره وينتهوا بنواهيه فليسوا سوى عملاء للشيطان والأعداء يريدون أن يفسدوا

عليا ديننا ودنيانا.

فهل تدرك أيها القارئ الآن سر رعبهم من إثارة قضية التكفير؟

فللإسلام مرجعيته وأعمدته وأركانه فمن خرج عليها فقد خرج عن الإسلام .. فماذا يرعبهم من ذلك إلا رعب جاسوس يحمل جواز سفر مزور من اكتشاف التزوير .. جاسوس ما دخل إلا ليخرب ويهدم.

في حوار مع المستشار طارق البشرى كان أحد اليساريين يحاول حصاره بذلك النوع العفن من الأسئلة الذي تمرسوا عليه، كان يحاول أن يبتز منه رفضا مطلقا للتكفير .. وأجاب المستشار الكبير قائلا: لو أن ماركسيا جاء إليك ليقول أنه كف عن الإيمان بالمادية الجدلية .. هل ستواصل اعتباره ماركسيا أم تقرر أنه كفر بالماركسية؟! .. سوف تقول بالطبع – وهذا حقك – أنه كفر بأمر معلوم من الماركسية بالضرورة ولذلك فقد كفر بالماركسية. ورد المستشار السؤال بسؤال ..

– لماذا تحرمون المسلمين من هذا الحق؟

***

ليس ثمة أمل ولا حل إلا بحكم إسلامي ..

هو الأرقى والأفضل والأعظم..

حكم الخلافة..

بمثل هذا الحكم نستطيع أن نقوّم اعوجاج ولاة أمورنا بأقلامنا وبسيوفنا إن لزم الأمر .. بمثل هذا الحكم نستطيع أن نرد على بيريز قولته .. وبمثله ليس لنا أبدا أن نقول: ما لنا وفلسطين؟..

***

ولقد صدقت يا سيدي ومولاي وحبيبي يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ..

ولقد صدقتم يا صحابته ..

لا يصلح آخر هذه الأمر إلا بما صلح به أوله.